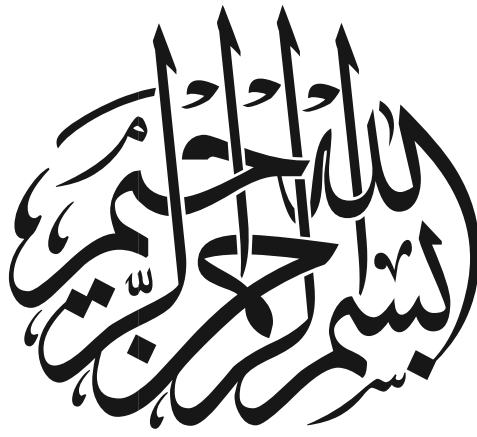


خَاطِرَاتُ د. مُحَمَّدِ الطَّبْرَانِيِّ

اليومِ سفِي

إذا رأيتم الجمال  
فكبروا...!



## خاطرات 1

## اليوسفي: إذا رأيتم الجمال فكبروا...!

نُصِبْ نَحْنُ لِلْمَنَايَا تَخَطُّنَا مَرَارًا، فَإِذَا قَرُطُسْتُ أَصَابْتَ فَأُضْمَتُ،  
وَأَسْعِدُنَا مِنْ كَانَ عَاقِلًا، فَلَمْ يَكُنْ عَنْهَا غَافِلًا، فَلَا تَتَوَسَّهْ إِلَّا وَقَدْ تَأْهَبُ  
لَهَا بِسُغْيِهِ، عَلَى وَزَانِ وَسُوعِهِ.

عرفتُ العلامة اليوسفي ريتانا من الذكر بَلِيلِ اللِّسَانِ بِهِ، سَلِيمَا  
صَدْرُهُ مِنْ نَوَازِعِ الشَّرِّ وَنَوَازِعِ الْفِتْنَةِ، مَرْتَاضَا عَلَى الْبِشْرِ وَإِنْ أخطأه  
السَّعْدُ، حَلَوِ الدَّعَابَةِ، يَلْقَى مِنْ يَأْنَسُ بِهِ وَيَخْفُتْ عَلَى نَفْسِهِ فَيَبَادِرُهُ بِالتَّكْبِيرِ  
مَرْدِفًا: إِذَا رَأَيْتُمْ الْجَمَالَ فَكَبَرُوا!.

وهلْ كَانَ الرَّجُلُ لِمَنْ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا نُضْبًا لِلسَّعَادَةِ، وَأَيُّقُونَةٌ لِلْفَرْحِ؟!  
وَلَوْ اطَّلَعُوا مِنْ خَاصِّ أَحْوَالِهِ عَلَى الْيَسِيرِ بِأَخْرَةٍ، لَعَلِمُوا أَنَّ جِلَادَتَهُ فِي  
الْحَقِّ، وَإِلْفِهِ لِمَوَافَقَةِ النَّاسِ، وَإِشْفَاقِهِ مِنْ أَنْ يَلْقَاهُمْ بِمَا يَكْرَهُونَ، أَبْتُ  
عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَبْتَهَجَ بِمَحْضَرِهِمْ وَهُوَ مَحْزُونٌ، وَيَقْتَنِصَ النِّكْتَةَ الشَّارِدَةَ  
وَاللَّطِيفَةَ الْمُسْتَغْصِمَةَ وَهُوَ مَكْرُوبٌ، وَيَتَحَرَّجُ عَنْ إِبْرَامِ النَّاسِ بِالشُّكْوَى،  
وَقَدْ تَحَقَّقَ بِقَوْلِ مَوْلَاهُ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾، لَكِنْ قَدْ تَنَدَّدَ عَنْهُ  
لِمَا نَفَثَاتُ لِلْخُلُصِّ مِنْ أَصْحَابِهِ، كَنَدِيفِ الْغَيْمِ فِي سَمَاءِ يَوْمٍ صَحْوٍ، ثُمَّ  
يَعُودُ إِلَى مَا اعْتَادَهُ مِنَ الْبِشْرِ:

"ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة:

يواسيك، أو يسليك، أو يتوجع"

وَمَلَّكَ عَلَيْهِ شِغَافَ قَلْبِهِ فِي حَمِيًّا شَبَابِهِ، عَلَّامَانِ كَانَ شَدِيدَ اللَّهَجِ  
بِهِمَا -جَمَعْتُهُمَا مَرَكَشَ: أَلْقَى بِهَا أَحَدُهُمَا عَصَا التَّنْسِيَارِ، وَنَيْطَتْ بِهَا عَلَى  
الْآخِرِ تَمَائِمُهُ- صَحَبَ الْأَوَّلَ مِنْهُمَا أَوَانَ الطَّلَبِ، وَأَدَارَ عَلَيْهِ بَعْضَ كُتُبِهِ  
وَبَحْوَتِهِ، وَتَرَقَّتْ وَشَيْجَتُهُ بِهِ حَتَّى كَانَ يَغْشَاهُ فِي مَرْقَدِهِ بِضَاحِيَةِ الْقِصْبَةِ  
وَيَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ تَرَدُّدَ الصَّاحِبِ الْحَيِّ، وَتَلَازَمَا فِي الْإِسْتِجَابَةِ الشَّرْطِيَّةِ عِنْدَ  
الْمَرَكَشِيِّينَ، إِلَى الْقَدْرِ الَّذِي صَارَ فِيهِ السَّهِيلِيُّ مَحِيلًا عَلَى الْيُوسُفِيِّ  
مُسْتَدْعِيًا لَهُ<sup>1</sup>. وَأَمَّا الثَّانِي، فَأَبُو الْحَسَنِ الْحَرَالِيُّ، وَكَانَ يُهْرَعُ إِلَى الثَّنَاءِ عَلَيْهِ  
كَلِمَا سَيِّقَ ذِكْرُ أَعْلَامِ حَاضِرَتِنَا، مَتَنَدِّرًا بِمَا كَانَ يَلْقَاهُ مِنْ كَرِيمَةٍ، مُغْلِيًّا مِنْ  
شَأْنِ دَقَائِقِهِ وَرَقَائِقِهِ فِي الْمَفْتَاحِ وَعَرْوَتِهِ، وَلَا أَعْلَمُ لِمَ كُنْتُ أُحْدِسُ فِي  
كُلِّ مَرَّةٍ أَسْمَعُ مِنْهُ ذَلِكَ، أَنَّهُ كَأَنَّمَا يَحْدِّثُنِي عَنْ نَفْسِهِ!

وقد عرفتُ رائقَ بيانه قبلَ تحقُّقي برسمه، حينَ صفحتُ سنةَ 1998  
بعضَ ما كتبَ في دبلومِ الدراساتِ العُليا بدارِ الحديثِ الحسنيةِ -وأنا

<sup>1</sup> - كانت الرابطة المحمدية للعلماء قد انتدبتني لأول أمرها لإنجاز كتاب تعريفني وسط عن أبي القاسم السهيلي، فاعتذرت حينها محيلا على الفقيد رحمه الله، تعلت أن ذلك مني لو وقع تسوُّر على رجلٍ له قُدْرُهُ وَمَكَانُهُ.

طالبٌ بها يومئذ:- "الإمام السهيلي ودراسة كتابه: التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام (نوقش بتاريخ: 1991/06/20)، فلما لقيته أثنى خلقه على بيانه، فصار هذا أدنى خلاصه، وأيسر إدلاليه.

ولئن كان خفضُ الجانب من فئام عريضة من الناس، تدثراً بلباس المسكنة طلباً للعافية، وضغف مُتة في الغالب: لقد كان الشيخ اليوسفي بريئاً من ذلك، لا جرم أن لطفه وتواضعه طبعي "غير مجلوب"، على حد ما قال أبو الطيب.

ومن بابة "إنكار ذاته"، أن هيئة علمية علقت طبع أحد كتبه منذ سنوات على تزكية خطية من اثنين تسوغ تزكيتهما في الأعراف الأكاديمية -هكذا قدروا-، فرآني أحدهما، فلا تسلى عما حزني من ذلك، وسعيت حينها إلى التنصل فلم يسعف، وأخذني أفكُل حين رمت الكتابة، فقد خشيت مصارع الأقلام حين ترعف في غير الجادة، بكلمة لا تلقي لها بالاً، لكنها في خلد اليوسفي جارحة حارقة، والكلام عن العلماء شديد، فكتبت ما تهياً لي بعد أن أخذت عليه أغلظ الأيمان ألا يحمل ما قد يبدو له منه إلا على الأرشد والأسلم، تأسيساً على أن العبرة بالمقاصد والمعاني، فكان مما رسمت حينها<sup>2</sup>: "فضيلة الأستاذ العلامة د. محمد اليوسفي أحد وجوه العلم المشفرة في مراكش، بما يحتجنه صدره من حقائق العلم، وما تخطه أنامله من بديع أسفاره، وما تبديه أخلاقه من كريم النخيزة وعراقة المحتد، إلى ما يزينه من خلق زاك قلّ مباريه فيه. وقد كتب كتباً عمّ النفع بها، وأثرها عندي وأحقها بالتقديم وأحراها بالاحتفال كتابه القيم: "الإمام أبو القاسم السهيلي وتراثه العلمي: مساهمة في التأصيل"؛ وهو وفاء متعين منه لمراكش وأعلامها، أداره باقتدار على أبي زيد السهيلي وآثاره، فجاء عملاً حفيلاً جليلاً يقتعد من الأوضاع عن السهيلي الصذر، ويأخذ باللبّة، ويرفع الرأس به قطان المدينة الحمراء من أهل العلم، وهو حريّ بالطبع المجدد، ليعم النفع بذلك، جزى الله خيراً القائمين على ذلك...

وليس كلام مثلي في هاته البابة شهادة بمعناها المعترف؛ كلا، فما تستقيم من الأدنى فيمن هو أمثل منه، ولكني دُعيْتُ فأجبت... وحاصل الأمر أن الأستاذ اليوسفي من المعارف، وما يُبديه من أعمال كلها قَمينٌ بالاحتفاء، محليٌ بميسم النفع والركاء". اه المقصود منه.

وقد بقي عليّ من حق الفقيد أن أنبّه إلى أنه أتم تحقيق "شرح آية الوصية" لأبي زيد على نسخ شتى، دللته على بعضها لأول اشتغاله به، ولم أزل أستخبره عنه، حتى أسرّ إلي أنه نفض يده من تصحيح نصّه والتعليق على قضاياه، ولست أدري أكتب مقدمته أم لا، وأنا أضنّ به عن

<sup>2</sup> - بتاريخ: 2019-03-09.

أن تناله يد الإهمال، فلعل أسرته الكريمة تمكّن القيمين من طبعه؛  
جعله الله من بيض صنائعه، صدقة جارية يلحقه أجرها، ويعمّ الناس  
نفعها.

وليس تهاته الكلمات على ضعف الجدا وورثاة الحوك، من  
قاموس المناقبة الغالية على نمط التقديس الهوميروسي، أو الترجمة  
على نسق كتب الطبقات، ولكنها نفاثات اليراع، تقضي أو تكاد حق فؤاد  
منصدع بتواري الصالحين... وهل نرثي حين نزع ذلك سوى أنفسنا، وهل  
هي إلا "نفس تساقط أنفسا"؛ إن موت الآخرين مرايا لبعد آخر تنقضي  
فيه أجالنا، فرحماك اللهم...

رحم الله اليوسفي، ونفعه بسلامة صدره، وحسن خلقه، وكثرة  
ذكره، وبرائة يده من الأذى، وجعل الفردوس الأعلى كفاء ما ابتلي فصبر.  
اللهم اخلفه في أهله، وأعل من ذكره، وإني على فراقه لمحزون.

د. محمد الطبراني

أستاذ التفسير وعلوم القرآن، جامعة القاضي عياض

[tabarany.com](http://tabarany.com)

[twitter.com/oknda1osdqmhbj](https://twitter.com/oknda1osdqmhbj)

